الإعلام وإنتاج المعرفة

المعرفة أخذت تعريفات مختلفة عند الفلاسفة والمفكرين، مثل الإدراك والوعي والفهم للحقائق وأخذت غير ذلك من التعريفات التي اتفق واختلف معها من خاض فى المصطلح، لذا أنقل تعريف بن سيدة وبن منظور على اعتبار تعريفهما غاية فى الإيجاز والتعبير، فقد عرف بن سيدة المعرفة كمفردة مشتقة من العرفان وهو العلم، ومنها أيضا التعريف الذي قال عنه بن منظور الإعلام وإنشاد الضالة. بعيدا عن الرؤية الفلسفية الباحثة فى المصطلح ذاته وتعريفاته نري دقة الوصف العربي للمعرفة، فلو تعاملنا معها من باب العلم فإنها بذلك الوصف فضيلة كبرى أما التعامل مع التعريف والمعرفة بوصفهما الإعلام، فقد طرحنا قضية لو أخذناها على محمل الجد، لتحولت وسائل الإعلام إلى أهم أدوات تنويرية فى الوجود. أما إنشاد الضالة فيعني فتح باب البحث الدائم المتواصل بلا إنقطاع مادامت الحياة قائمة. تعريفات جميعها تصب فى طريق إعمال العقل والسعي خلف الحقيقة ومحاولة إدراك الوقائع والأحداث والحياة بأكملها طبقا لمفهومنا للعلم وطريقة تحصيلة ومنهجية البحث وفرض الفرضيات واقتراح الحلول. المعرفة بالمعنى العربي بها من الثراء ما يجعلك تتساءل طالما يملك العرب ذلك الميراث الإصطلاحي السابق والقادر على التواجد إجرائيا، فلماذا هم فى ذيل الأمم؟ يعيدنا السؤال إلى ذات قضية اتصال أو انفصال الإصطلاح عن الإجراء، وعدنا للوراء حيث برامج "التوك شو" القيل والقال

والنميمة والحفلة والاستعراض بالكلام، حسب ترجمة "التوك شو" فقد حول الإعلام المرئي تحديدا المعارف إلى آليات جدلية لكسب نقاط ذاتية للانتصار الشخصي وفعل الدهشة عند الجمهور بفعل استعراضي خالي من السعي لدفع المتلقي إلى البحث عن معارف جديدة أو التثبت من صحة معارف مطروحة عبر الرسائل التليفزيونية وهذا العبث لم يأت من فراغ لكنه جاء نتيجة اللهاث خلف اصطلاحات تعريفية للإعلام على شاكلة ما قدمه أوتوجروت وأمثاله غير عابئين بمفاهيم الباحثين العرب الأكثر شمولا والأقدر على التطبيق فى الواقع. فإذا كان الإعلام يساوى فى تعريفه العلم، فإنها دعوة اصلاحية للتعامل مع القنوات الفضائية من باب تحصيل المعارف والعلوم، لا من زاوية الاستعراض والكسب المحرم أو التعليب والتآمر مثلما يحدث فى القنوات السلطوية، فإذا ما أردنا أن نخدم أوطاننا، فمن الصالح أن يحدد الإعلام فى الدساتير بوصفه: الوسائل المرئية والمسموعة والمقروءة المملوكة للشعب والتى تعمل على دفعة للمعرفة والنهوض حتى فيما تقدمه من رسائل ترفيهية. بالطبع لا أقصد أن تكون الصيغة حرفية، لكن اعتماد أي صياغة تصب فى هذا المعنى ومايزيد عليه فى الدفع بالإعلام ناحية المعرفة.

إن الإعلام بهذا المفهوم المعرفي، سيدفع صناعه إلى مواجهة أي أفكار تصب فى هذا الاتجاه مهما بلغ العنف معها، فاعتماد الفكرة وتطبيقها سيحقق بعد زمن من تعديل سلوكيات التلقي عند المشاهد العربي، خسائرا لتلك الشركات العاملة فى مجال الإعلام المرئي. لكن الحكومات إذا ما أوجدت مشروعها الوطنى النهضوي الحقيقي، ليس

أمامها خيارات أخرى إلا الدفع بالإعلام على هذا الطريق المعرفي. فالجهاد لم يعد بالسيف، بل أصبح بالبحث العلمي "أحمد زويل" المعرفة هي طريقنا إلى تغيير واقعنا الأليم. وحدها القادرة على قولبة الظلام وتبديل العتمة إلى نورانية حقيقية. الإعلام المسئول اجتماعيا وحده القادر على الدفع بإعلامنا المرئي فى هذا الإتجاه مسخرا له كافة الطاقات والإمكانات المتاحة داخل إطار المشروع الوطني الذي لابد وأن ينتج إذا ما أردنا نهضة الإعلام حقا، فالنهضة الإعلامية جزء من ذلك المشروع الحلم والعمل على مسار الإعلام المعرفي بمواثيق شرف وقوانين، وبمعزل عن محيط المشروع الوطني النهضوي، عبث لا طائل من ورائه، سوى الخسائر المالية والمعنوية وإهدار الطاقات وسيصبح كما هو إعلام للعار وعوار فى العقل الرافض للتجديد وقلب الأوضاع الثابتة تحت دعاوى الدين والأخلاق والمجتمع، رغم كون هذه الادعاءات بعيدة كل البعد عن تلك الاصطلاحات السامية، فلا نحن حكّمنا دين ولا كرسنا لأخلاق ولا صنعنا مجتمعا. محض مجموعات بشرية تعيش سويا على قطعة أرضية، يسمونها وطنا. فالوطن هو الفكرة وتاريخها والحضارة واستمرارها والضمير وما حمله للإنسانية ونتاج المواطنين لخير البشرية أما أن نلخص الوطن كما جاء فى أغنية قديمة كنا نسمعها ونحن صغار، عنتها الفنانة إيمان الطوخي "يعني إيه كلمة وطن" – يعنى واو وطه ونون– يعنى اختصار لكل معان الجهل باختصار الوطن فى حروف جوفاء وتمثيليات على الفضائيات تحت مسمى البرامج. لو أن جوبلز غير المؤمن بالديمقراطية شهد مثل هذا العبث فى ألمانيا ما تورع عن الدفع بالإعلاميين إلى المحرقة، ولو أن ماوتوسنج من يحكمنا، ما تردد فى رمينا بالرصاص، مشاهد وإعلامي فالكل مشارك فى جرائم

تزييف عقل الأمة ووعيها. الكل مشارك فى ذبح المعرفة. ملعونون من سعوا خلف صاحب تعريف الإعلام بأنه التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها في الوقت نفسه. ذلك التعريف الذي كرس للمصطلح الفاسد والمعروف والشهير بيننا "الجمهور عايز كده" وكأنك تقدم السم لأولادك لأنهم يريدون ذلك. ملعونون من لم يقفوا على حد أفكار إبراهيم إمام ومن لم يفهموا أن الإعلام أداة تحريضية على الثقافة والمعرفة. لو أن صناع الميديا يملكون مساً من ضمير، لذهبوا بمحطاتهم ناحية الوطن. يتحسسون أزماته الحقيقية دون اللهاث خلف جزئيات تغيبية. لن نمل من المطالبة بحقوقنا المعرفية ولن نطالب بميثاق شرف إعلامي، بل سنطالب بمشروع وطني يرتمي فى حضنه ميثاق الشرف المأمول، فربما نعود يوما فجر ضمير العالم كما رآنا "هنري بريستيد" فى كتابه "فجر الضمير". أو مصر سيدة العالم كما رآها الأجداد. فالإعلام قادر على إنتاج المعرفة، ولن نكون أمة إلا بالمعرفة، فوحدها الضامنة لبقائنا على الخارطة العالمية والنظر إلينا كبشر، ودون ذلك فترقبوا من سيحل محل أمريكا، كي نصبح لهم تابعين.